

(٣٠)

من شبه الله بخلقه فقد كفر

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين. قال الإمام المؤلف شيخ الإسلام ابن تيمية: ((والله يعلم أي بعد البحث التام، ومطالعة ما أمكن من كلام السلف، ما رأيت كلام أحد منهم يدل . لا نصًّا ولا ظاهرًا، ولا بالقرائن . على نفي الصفات الخبرية في نفس الأمر؛ بل الذي رأيت أنه كثيرًا من كلامهم يدل . إما نصًّا، وإما ظاهرًا . على تقرير جنس هذه الصفات، ولا أنقل عن كل واحد منهم إثبات كل صفة، بل الذي رأيت أنهم يشبتون جنسها في الجملة؛ وما رأيت أحدًا منهم نفاها، وإنما ينفون التشبيه، وينكرون على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، مع إنكارهم على من نفي الصفات؛ كقول نعيم بن حماد الخزاعي . شيخ البخاري .: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً»)) هذا الكلام من علم محقق مدقق واسع الإطلاع كابن تيمية - كلام له ثقله . رجل يدري ما يقول ويخاف الله ﷻ فيما ينقل ويثبت . قال ((والله يعلم أي بعد البحث التام، ومطالعة ما أمكن من كلام السلف، ما رأيت كلام أحد منهم يدل . لا نصًّا ولا ظاهرًا، ولا بالقرائن . على نفي الصفات الخبرية في نفس الأمر)) وحسبك بهذه الشهادة من رجل مدقق تعقب كلام السلف وفتش في الكتب واطلع وبحث ونظر في الكلام ولم يجد في كلام السلف ما يسعف هؤلاء المؤولة . يقول: بل الذي رأيت أنه كثيرًا من كلامهم يدل إما نصًّا وإما ظاهرًا على تقرير جنس هذه الصفات يعني إثبات الصفات . ((ولا أنقل عن كل واحد منهم إثبات كل صفة)) يعني هو رحمه الله لا يدعي رحمه الله أنه ينقل عن كل واحد من السلف إثبات كل صفة لكن يجمع كلامهم الذي سودوا به الصحائف أنهم يشبتون الصفات وأن الأصل في مذهبهم الإثبات فهذا محفوظ عنهم ولا يختلف فيه اثنان، ونقل كلام نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قوله "من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر" . فهاتان الجملتان أولاهما رد على المثلة والثانية رد على المعطلة . ثم قال معقبًا ((وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً)) إذن لا يلزم من الإثبات التشبيه كما ادعاه أو توهمه هؤلاء .

((وكانوا إذا رأوا الرجل قد أغرق في نفي التشبيه من غير إثبات الصفات قالوا: جهمي مُعْطَلٌ؛ وهذا كثير جدًا في كلامهم، فإن الجهمية والمعتزلة إلى اليوم يسمون من أثبت شيئًا من الصفات مشبهًا . كذبًا منهم وافتراء . حتى إن منهم من غلا ورمى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك، حتى قال ثُمَامَةُ بن أشرس من رؤساء الجهمية: «ثلاثة من الأنبياء مشبهة، موسى حيث قال: {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ} [الأعراف: ١٥٥] ، وعيسى حيث قال: {تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ} [المائدة: ١١٦] ، ومحمد حيث قال: «ينزل ربنا» . وحتى أن جُلَّ المعتزلة تدخل عامة الأئمة مثل: مالك وأصحابه والثوري وأصحابه، والأوزاعي وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد وغيرهم، في قسم المشبهة.))

هذا واضح. هذان المنهجان المتمايزان. منهج السلف رحمهم الله وهو مذهب الإثبات والظن على من أغرق في نفي الصفات دون إثبات فيصفونه بالتجهم. ومن قرأ في كتب السلف المتقدمين المسندة رأى هذا كثير عندهم. إذا رأوا الرجل ينفي، ينفي، ينفي وصفوه بالتجهم، إذا رأوه لا يثبت لله عَبَّكُ الصفات قالوا هو جهمي معطل. والمنهج الآخر منهم المعزلة سلالة الجهمية فإنهم يصفون من أثبت لله الصفات الخيرية والفعلية بأنه مشبه. وما زالوا يلتمزون السلف والأئمة بهذا الوصف ليومنا هذا. وكان من أواخرهم في القرن المنصرم محمد زاهد الكوثري - فإنه تسلط على جملة من السلف المتقدمين الفضلاء ونال منهم ووصفهم بالألقاب السوء حتى جرد له المعلمي رحمه الله سيفه وسنانه ورد عليه ردًا مبرمًا. وهكذا طريقتهم. فهذان الطريقتان متمايزان لا التباس بينهما، مذهب السلف الذي هو الإثبات مع التنزيه ومذهب هؤلاء المعطلة الذي هو النفي المطلق وعدم اعتقاد صفة ثبوتية في نفس الأمر.

((وقد صنف أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن درباس الشافعي جزءًا أسماه: «تنزيه الشريعة عن الألقاب الشنيعة» وذكر فيه كلام السلف وغيرهم من معاني هذه الألقاب، وذكر أن أهل البدع كل صنف منهم يلقب أهل السنة بلقب افتراه، يزعم أنه صحيح على رأيه الفاسد، كما أن المشركين كانوا يلقبون النبي صلى الله عليه وسلم بالألقاب افتروها.

فالروافض تسميهم نواصب، والقدرية يسمونهم مجبرة، والمرجئة يسمونهم شكاكًا، والجهمية تسميهم مشبهة، وأهل الكلام يسمونهم حشوية ونوابت، وغشَاء، وغُثْرًا، إلى أمثال ذلك، كما كانت قريش تسمي النبي صلى الله عليه وسلم تارة مجنونًا، وتارة شاعرًا، وتارة كاهنًا، وتارة مفتريًا.))

الشيخ رحمه الله يشير لسنة كونية هي عداوة الزائغين للراسخين، والظالمين لأهل الحق والصراط المستقيم وهو نبذهم بالألقاب الشنيعة ونقل عن ابن درباس الشافعي في كتاب "تنزيه الشريعة من الألقاب الشنيعة" وكيف أن أهل البدع يرمون أهل السنة بالألقاب السوء. وذكر أمثلة. فمثلاً الروافض تسمي أهل السنة نواصب، لماذا؟ يقولون أنتم ناصبتم علينا وأهل البيت العدا. فيسمون أهل السنة نواصب. والقدرية يسمونهم مجبرة؛ لأن القدرية تقول أن العبد يخلق فعل نفسه وأهل السنة يابون ذلك ويقولون الله خالق كل شيء. فيقولون إذن أنتم مجبرة تقولون أن العبد مجبر على فعله. ثم بالمقابل المجبرة تلقب أهل السنة بأنهم قدرية؛ لأن أهل السنة يقولون للعبد فعل وإرادة ومشية حقيقية لكنها داخلية تحت مشيئة الله وقدره. فكلهم يرميه بداء ضده، وهم وسط. فكأن ثم فريقان متقابلان يتنازبان بالألقاب فهؤلاء يقذفون أهل السنة بالوصمة التي في هؤلاء وهؤلاء يرمون أهل السنة بالوصمة التي في هؤلاء والحق أن أهل السنة نظروا بعينين وأخذوا الحق الذي عند هؤلاء والحق الذي عند هؤلاء فالتأم لهم الحق. أما هؤلاء فقد نظروا بعين عوراء وهؤلاء نظروا بعين عوراء فصار الحق منقوصًا. كما في هذا المثال: مثال الجبرية القدرية. الجبرية أصابوا في إثبات طلاقة مشيئة الله وخلقها للأشياء. ولكنهم أخطأوا في سلب العبد قدرته وفعله ووصفه بأنه كالريشة في مهب الريح. والقدرية أصابوا في وصف العبد بأنه له مشيئة وفعل حقيقي لكنهم أخطأوا في إنكار قدر الله السابق وخروج أفعال العباد عن قدره. أهل السنة أخذوا الحق الذي عند هؤلاء والحق الذي عند هؤلاء ونبذوا الباطل الذي عند هؤلاء والباطل الذي عند هؤلاء. طبقاً لك أيضاً على المرجئة. المرجئة لماذا تسمي أهل السنة شكاكًا لأنهم يستشنون في الإيمان، يقول السني أنا مؤمن إن شاء الله، فتقول المرجئة الإيمان شيء واحد فكيف تقولون إن شاء الله وتستشنون؟ فهذا دليل على أنكم شاكين فأنتم شكاك.

وأهل السنة إنما أرادوا بقولهم إن شاء الله خوف تركية النفس من تحقيق الإيمان الكامل فهم لا يدعون ذلك؛ لأن الإيمان عند أهل السنة يزيد وينقص وأهله فيه متفاضلون. فهم إن قالوا نحن مؤمنون إن شاء الله لا يقصدون بذلك أصل الإيمان وإنما يقصدون الإيمان الواجب والإيمان الكامل. لذلك قالوا إن شاء الله. ولو ادعوا أنهم مؤمنون لادعوا أنهم أهل الجنة وقطع الواحد منهم بأنه من أهل الجنة. والجهمية تسميهم مشبهة؛ لأن الجهمية مبنى مذهبها على نفي الصفات، ولما كان أهل السنة يثبتون الصفات قالوا أنتم إذن مشبهة وأهل الكلام يسمونهم حشويو ونوابت وعتاء وعترا وكل هذه الألفاظ تسفيهية واستهجانية. يقع من الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة لمز أهل السنة بهذه الألقاب. حشوية كيف؟ أنتم ليس عندكم إلا حشو، تروون الروايات والأسانيد ولا تحققون ولا تدققون، فأنتم حشوية. يعني من الحشو الذي لا يميز صحيحه من زائفه. أو نوابت يعني ما تنشأ لجانب الشجر وكذا ولا قيمة لها يعني أنكم لا يابيه لكم كالعوالق وما ينبت لجوار الشجرة ونحو ذلك. والغتاء هو الذي يكون على مجرى السيل زيد وليس بشيء. أو عتراء. وكل هذه ألقاب سوء قال عتراء يعني الجماعة الجهال. فلم يزل أهل الباطل ينبذون أهل الحق بألقاب سوء منذ قدم الدهر. فلا يستنكر ذلك. قريش كانت تسمى النبي ﷺ تارة مجنونًا وتارة ساحرًا وتارة شاعرًا وتارة كاهنًا وتارة مفتريًا. فهذه خطة قديمة وسنة جاهلية. لهذا قال الشيخ: ((قالوا: فهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة، فإن السنة هي ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتقادًا واقتصادًا وقولًا وعملاً؛ فكما أن المنحرفين عنه يسمونه بأسماء مذمومة مكذوبة. وإن اعتقدوا صدقها بناء على عقيدتهم الفاسدة. فكذلك التابعون له على بصيرة الذين هم أولى الناس به في المحيا والممات، باطنًا وظاهرًا)) صحيح. مما ينبغي أن يستأنس به المؤمن. فالمتبادر للذهن أنه ألقاب السوء مدعاة لضيق الصدر، لكن الشيخ قلب القضية وقال هذا بالعكس دلالة على صحة المنهج، لماذا؟ لأن هذا علامة الإرث الصحيح { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } (الأنعام: ١١٢) فأعداء الرسل أعداء لأتباع الرسل. فالذين عادوا الأنبياء وسفهوهم حري بأمثالهم أن يعادوا أتباع الأنبياء. فلا يضيق صدرك أيها المؤمن إذا سمعت من يطلق عليك ألقاب السوء ويصفك أوصاف سيئة. فقد قيل مثل ذلك لمن هو خير منك فيستأنس بهذا ويعتبر من علامات صحة الطريق ومن المؤشرات الدالة أنك تسير على الطريق الصحيح. بل لو لم يقع لك ذلك فتفكر في نفسك لما لم يقع لك ذلك؟ فإن هذه من علامات الطريق. كما يقال لك إذا سلكت هذا الطريق فستمر بجبل ثم تمر بوادي ثم كذا، فكلما رأيت من هذه العلامات المذكورة ازددت طمأنينة ولو لم تجدها أصابك قلق فاطمئن أيها المؤمن ولا تتردد فهذه علامات الإرث الصحيح.

((وأما الذين وافقوا بيواطنهم وعجزوا عن إقامة الظواهر، والذين وافقوه بظواهرهم وعجزوا عن تحقيق البواطن، أو الذين وافقوه ظاهراً وباطناً بحسب الإمكان: لا بد للمنحرفين عن سنته أن يعتقدوا فيها نقصاً يذمونهم به، ويسمونهم بأسماء مكذوبة. وإن اعتقدوا صدقها. كقول الرافضي: من لم يبغض أبا بكر وعمر، فقد أبغض علياً، لأنه لا ولاية لعلي إلا بالبراءة منهما، ثم يجعل من أحب أبا بكر وعمر ناصياً، بناءً على هذه الملازمة الباطلة، التي اعتقدوها صحيحة، أو عاندوا فيها وهو الغالب.))

هذا مثال لهذه الدعاوى العريضة والمزاعم البغيضة حينما يقول الراضى من والى أبا بكر وعمر فقد عادى علياً، سبحانه الله! من أين هذه اللازمة؟! لأنهم يقولون لا ولاء إلا ببراء. هذه لازمة ابتدعوها ودعوى ادعوها فلا يسلم لهم ذلك ولا يقاد لهم فيما ادعوا.

وذكر مثلاً آخر ((وكقول القدرى: من اعتقد أن الله أراد الكائنات وخلق أفعال العباد، فقد سلب العباد القدرة والاختيار وجعلهم مجبورين كالجماادات التي لا إرادة لها ولا قدرة.))

هذا القدرى الذي ينفي قدر الله المتعلق بأفعال العباد من الطاعات والمعاصي يزعم أن من اعتقد أن الله ﷻ قد سبقت قدرته وشاء من عباده طاعاتهم ومعاصيهم وخلقها ﷻ؛ لأنه خالق كل شيء زعموا بأن معتقد ذلك يكون سالباً للعبد قدرته واختياره. وهذه دعوى يبطلها الشرع والواقع. فإن نجد في نصوص الكتاب والسنة ما يدل على سبق القدر وأن ذلك يبلغ مبلغ التواتر. ونجد في الواقع في أنفسنا أننا نريد الشيء فتارة يكون وتارة لا يكون. فإذا وافق مرادنا مراد الله ﷻ تم الشيء وحصل وإذا خالف مراد الله ﷻ حيل بيننا وبينه. فهذه الدعوى من القدرية دعوى ساقطة.

ثم ذكر مثلاً آخر فقال ((وكقول الجهمي: من قال: إن الله فوق العرش، فقد زعم أنه محصور، وأنه جسم مركب وأنه مشابه لخلقه.)) هذه أيضاً من الدعاوى التي يلوحون بها ويتوصلون بها لنفي ما أثبت الرب لنفسه. يزعمون أن من قال أن الله ﷻ فوق العرش فإنه محصور وأنه جسم مركب وأنه مشابه لخلقه. من أين لكم ذلك؟ وما دليل هذه الإلزامات؟ هذا مبني على أنكم ضربتم لله الأمثال وقال ﷻ {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} وأعلمتم عقولكم فيما تعهدونه في المخلوقات في حق الله ﷻ فوقتكم في التشبيه ثم فرتم من التشبيه للتعطيل ولو أعطيتكم النصوص حقها لأثبتتم لله ﷻ ذاتاً لا تشبه الذوات تقوم بها صفات لا تشبه الصفات. فيكون لله ﷻ استواء على عرشه وعلو حقيقي لا يلزم منه أن يكون جسمًا بالمعنى الذي يقوم بالأجسام. ولا يلزم أن يكون محصورًا كما ادعيتهم. ولا يلزم أن يكون مشابهاً لخلقه. فكل هذه دعاوى لا دليل عليها فليس لكم أن تلزموا غيركم بها.

ثم ذكر مثلاً رابعاً ((وكقول الجهمية المعتزلة: من قال: إن الله علماً وقدرة، فقد زعم أنه جسم مركب، وهو مشبه، لأن هذه الصفات أعراض، والعرض لا يقوم إلا بجوهر متحيز، وكل متحيز فـجسم مركب، أو جوهر فرد، ومن قال ذلك فهو مشبه، لأن الأجسام متماثلة.)) هذه أيضاً من الدعاوى الباطلة وهي دعوى المعتزلة والجهمية وليس الأشاعرة والصفائية فإن الجهمية والمعتزلة ينكرون الصفات ابتداءً ولا يثبتون إلا أسماء خلية من الصفات بمنزلة الأعلام المحضة فقط. فهؤلاء المعتزلة والجهمية يقولون: من قال أن الله علم وقدرة فقد زعم أنه جسم مركب. فما المطلوب؟ الجهمية تقول: لا تقولون لا عالم ولا قادر وليس له علم وليس له قدرة. المعتزلة تقول لا بأس قولوا عالم وقولوا قادر لكن عالم بلا علم وقادر بلا قدرة هكذا. هذا كلامهم. ويقولون أن من زعم لله علماً وقدرة فقد زعم أنه جسم مركب. سبحانه الله!! لماذا هذا اللازم؟ لماذا يلزم من إثبات علم وقدرة لله أن يكون جسمًا مركبًا؟ حجتهم في ذلك أن هذه الأشياء لا تقوم إلا في أجسام، هذا باعتبار نظركم القاصر وتناولته أذهانكم، فالله أكبر من عقولكم وفهومكم الضالة. قالوا وهو مشبه؛ لأن هذا من صفات أعراض والعرض لا يقوم إلا بجوهر متحيز وكل متحيز جسم مركب أو جوهر فرد. يعني ظلمات بعضها فوق بعض وشبهه يمسك بعضها برقاب بعض. ابتدأوا أولاً بضلالة فأسلمتهم لضلالة ثم ضلالة وهكذا ظلمات بعضها فوق بعض. فأخطئوا من مبتدأ الطريق حينما ضربوا لله الأمثال وشبهوه بخلقه. فرغمهم هذا "لأن الأجسام متماثلة" سبحانه الله! من قال أن الأجسام متماثلة؟ الأجسام ليست متماثلة، وجميع العقلاء يدركون أن المعدن ليس

كالقطن والقطن ليس كالماء ولكل جسم خصائصه المختلفة. حتى عند الفيزيائيين وعلماء الجيولوجيا وغيرها لا يقولون الأجسام متماثلة. ما هذه الدعوى التي تدعوها؟ يأتون بهذه الدعوى العريضة فيخيل للساذج أن هذا كلام مدروس وأن هذه حقائق فينبهر ويستسلم لهم ويسلمهم قياده للنتائج التي توصلوا إليها. وهذا كله من شؤم الاشتغال بالمنطق وعلم الكلام. ولما عصم الله ﷻ أهل السنة والجماعة واشتعلوا بكلام الله وكلام رسوله أنتج لهم فهوماً صائبة وإدراكات سليمة سوية لم تطوح بهم في هذه الضلالات.

ثم قال ((ومن حكى عن الناس «المقالات» وسماهم بهذه الأسماء المكذوبة بناءً على عقيدتهم التي هم مخالفون له فيها، فهو وريه. والله من ورائه بالمرصاد، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله.)) هذا كلام موحش مخيف. يعني من ادعى على أهل السنة هذه الدعوى ووصمهم هذه الوصمات فالله ﷻ حسيبه كما قال ((فهو وريه)) يعني الله ﷻ يتولاه ويحاسبه لأن سبه لفلان وعلان من الناس ليست كسبة لأهل الحق وسبيل المؤمنين. ربما نال شخص من شخص فتقاضى منه يوم القيامة بأن يأخذ من حسناته لكن تخطئة سلف الأمة وخيارها وأئمتها ماذا يصنع هذا الذي وصمهم بهذه الألقاب "نوابت وغشاء وكذا وكذا" ويطلق الكلام على عواهنه ويسفه خيار الأمة والتابعين لسبيل المؤمنين. هذا أمر عظيم. ولهذا قال ((والله من ورائه بالمرصاد)) ولهذا يا أخوة لو قرأتم في كتب الملل والنحل لوجدتم مقالات كثيرة من مقالات هؤلاء المبتدعة اندثرت وذهبت وأصحابها ولم يبق لهم ذكر؛ لأنها لا تأوي لركن شديد ووجدتم كلام السلف كلاماً منوراً عليه بهاء ونور من كلام النبوة من ناطق الكتاب وتجد التصديق يصحبه. وما سواه فقد اضمحل وذهب.

نقف عند هذا القدر وبقي قطعة يسيرة بإذن الله فيها بعض الخلاصات المفيدة نرجئها لقراءة الليلة القادمة وبها بإذن الله نختتم هذا الكتاب المبارك.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.